

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» ١٣ جمادى الأولى ١٤٤٣ هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَتَمَ بِالرَّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ جَمِيعَ الرِّسَالَاتِ، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ نَعْتَزُّ بِهَا نَحْنُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

إِنَّ الْحِفَاظَ عَلَى الْهُوِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْخُدُوشِ، فَضْلًا عَنِ الْمَسْخِ وَالطَّمْسِ وَاجِبٌ شَرْعِيٌّ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا:

الأوَّلُ: تَحْرِيمُ التَّشْبِهِ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ، لَا فِي عِبَادَةٍ، وَلَا فِي لِبَاسٍ، وَلَا فِي قِصَّةِ شَعْرٍ، وَلَا غَيْرِهَا. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ، أَخْبَرَنِي عَنِ الصَّلَاةِ، قَالَ: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ»، وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَقَالَ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

الثَّانِي: التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ ﷻ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَلَا إِلَى نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعَثَهُ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا خُلْفَ. اهـ

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَاتُوا عَلِيَّ مَخَاضَةَ وَعُمَرَ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ، فَزَلَّ عَنْهَا، وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِرِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِرِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخْوِضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: أَوْهَ! لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرِكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتَهُ نِكَالًا لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ.

الثَّالِثُ: الْحِفَاطُ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ. فَأَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ إِذَا اخْتَلُّوا بَلَدًا يَعْمِدُونَ إِلَى طَمْسِ لُغَةِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهِمْ يُدْرِكُونَ قِيمَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَأَهْمِيَّتَهَا فِي الْإِزْتِبَاطِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، مَصْدَرِ عِزِّهِمْ وَقُوَّتِهِمُ الْمَعْنَوِيَّةَ بَعْدَ اللَّهِ ﷻ. قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «اِقْتِضَاءُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ»: كَانَ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَقَدِّمُونَ لَمَّا سَكَنُوا أَرْضَ الشَّامِ وَمِصْرَ، وَلُغَةُ أَهْلِيهَا رُومِيَّةً، وَأَرْضَ الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَلُغَةُ أَهْلِيهَا فَارِسِيَّةً، وَأَرْضَ الْمَغْرِبِ، وَلُغَةُ أَهْلِيهَا بَرْبَرِيَّةً، عَوَّدُوا أَهْلَ هَذِهِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ، حَتَّى غَلَبَتْ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْأَمْصَارِ: مُسْلِمِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، وَهَكَذَا كَانَتْ خُرَاسَانُ قَدِيمًا. ثُمَّ إِنَّهُمْ تَسَاهَلُوا فِي أَمْرِ اللُّغَةِ، وَاعْتَادُوا الْخِطَابَ بِالْفَارِسِيَّةِ، حَتَّى غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ وَصَارَتِ الْعَرَبِيَّةُ مَهْجُورَةً عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مَكْرُوهٌ، وَإِنَّمَا الطَّرِيقُ الْحَسَنُ اعْتِيَادُ الْخِطَابِ بِالْعَرَبِيَّةِ، حَتَّى يَتَلَقَّنَهَا الصِّغَارُ فِي الْمَكَاتِبِ وَفِي الدُّورِ؛ فَيُظَهَّرَ شِعَارُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَسْهَلَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي فَهْمِ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ. اهـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ لِرِفْعَةِ الْأُمَّةِ وَرِيَادَتِهَا أَسْبَابًا، مِنْهَا:

الأوَّلُ: اعْتِقَادُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ هُوَ مَصْدَرُ الْعِزَّةِ وَوَاهِبُهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ

تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾. قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِغَاثَةِ اللَّهْفَانِ»: الْعِزَّةُ وَالْعُلُوُّ إِنَّمَا هُمَا لِأَهْلِ الْإِيمَانِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهُوَ عِلْمٌ وَعَمَلٌ وَحَالٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فَلِلْعَبْدِ مِنَ الْعُلُوِّ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فَلَهُ مِنَ الْعِزَّةِ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَحَقَائِقِهِ، فَإِذَا فَاتَهُ حَظٌّ مِنَ الْعُلُوِّ وَالْعِزَّةِ، فَفِي مُقَابَلَةِ مَا فَاتَهُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ، عِلْمًا وَعَمَلًا، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا مُلَخَّصُهُ: يُنَبِّهُ ذَوِي الْأَقْدَارِ وَالْهَمَمِ مِنْ أَيْنَ تُنَالُ الْعِزَّةُ، وَمِنْ أَيْنَ تُسْتَحَقُّ. فَمَنْ طَلَبَ الْعِزَّةَ مِنَ اللَّهِ وَصَدَقَهُ فِي طَلِبِهَا بِإِفْتِقَارٍ وَذُلٍّ، وَسُكُونٍ وَخُضُوعٍ وَجَدَهَا عِنْدَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ غَيْرَ مَمْنُوعَةٍ وَلَا مَحْجُوبَةٍ عَنْهُ، قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ». وَمَنْ طَلَبَهَا مِنْ غَيْرِهِ وَكَلَّهُ إِلَى مَنْ طَلَبَهَا عِنْدَهُ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

وَإِذَا تَدَلَّلَتِ الرَّقَابُ تَوَاضِعًا مِمَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

فَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ لِيَنَالَ الْفَوْزَ الْأَكْبَرَ، وَيَدْخُلَ دَارَ الْعِزَّةِ - وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ - فَلْيَقْصِدْ بِالْعِزَّةِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَالْإِعْتِزَالَ بِهِ، فَإِنَّهُ مَنْ اعْتَزَّ بِالْعَبْدِ أَذَلَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ اعْتَزَّ بِاللَّهِ أَعَزَّهُ اللَّهُ. اهـ

الثَّانِي: صِدْقُ الْإِنْتِمَاءِ لِهَذَا الدِّينِ، وَالشُّعُورُ بِالْفَخْرِ لِلإِنْتِسَابِ لَهُ، وَالْإِعْتِزَالَ بِهِ، حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الْإِسْتِضْعَافِ، وَاسْتِقْوَاءِ أَعْدَاءِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوْيَ لِي الْأَرْضِ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»، وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا

يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ». وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ.

الثَّالِثُ: مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَدْيِهِ، وَطَاعَتُهُ فِي أَمْرِهِ، وَلِزُومُ سُنَّتِهِ، فَإِنَّهُ بِقَدْرِ ذَلِكَ تَكُونُ عِزَّةُ الْعَبْدِ فِي الدُّنْيَا، وَفَلَاحُهُ فِي الْآخِرَةِ. أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي».

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «زَادِ الْمَعَادِ»: وَالْمَقْصُودُ أَنَّ بِحَسَبِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكُونُ الْعِزَّةُ وَالْكَفَايَةُ وَالنُّصْرَةُ، كَمَا أَنَّ بِحَسَبِ مُتَابَعَتِهِ تَكُونُ الْهِدَايَةُ وَالْفَلَاحُ وَالنَّجَاةُ، فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَّقَ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ بِمُتَابَعَتِهِ، وَجَعَلَ شَقَاوَةَ الدَّارَيْنِ فِي مُخَالَفَتِهِ، فَلِاتِّبَاعِهِ الْهُدَى وَالْأَمْنُ وَالْفَلَاحُ، وَالْعِزَّةُ وَالْكَفَايَةُ، وَالنُّصْرَةُ وَالْوِلَايَةُ وَالتَّايُّدُ، وَطَيْبُ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِمُخَالَفَتِهِ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ، وَالْخَوْفُ وَالضَّلَالُ، وَالْخِذْلَانُ وَالشَّقَاءُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

الرَّابِعُ: الْيَقِينُ بِأَنَّ الْعُلُوَّ وَالْتَّمَكِينَ فِي الْأَرْضِ لِلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

أَيُّهَا الْأُخُوَّةُ: تَمَسَّكُوا بِدِينِكُمْ، وَاعْتَزُّوا بِهِ، فَقَدْ اجْتَمَعَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ نَفَرٍ مِنَ الْأَعْرَابِ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَنَا قُرَشِيٌّ، وَقَالَ الثَّانِي: أَنَا قَيْسِيٌّ، وَقَالَ الثَّالِثُ: أَنَا تَمِيمِيٌّ، ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنْ نَسَبِهِ، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ